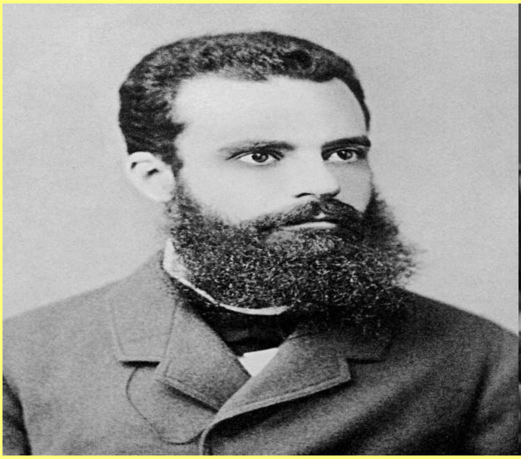
نحـــو عـــــلــم اجتمـــــاع تـــويـــري

Towards an enlightened sociology

للدراسـات والأبحـاث الإنسانية والسوسيولوجية





الإنسان ما بين الرواسب والمشتقات

نظرية فلفريدو باريتو عن صعود وسقوط النخب السياسية

(مع أمثلة تطبيقية على مشكلات السياق العربي)

د. حسـام الـدين فيـاض

باحث وأكاديمي سوري

الطبعة الأولى 2025

نحــو عـــلم اجتمـــاع تنــويــري

Towards an enlightened sociology

الدراســات والأبحــاث الإنسانية والسوسيولوجية

نحـــو عـــــلم اجتمـــــاع تنـــويـــري

Towards an enlightened sociology

الدراسات والأبحاث الإنسانية والسوسيولوجية

● تأليف د. حسام الدين فياض الأستاذ المساعد في النظرية الاجتماعية المعاصرة

الإنسان ما بين الرواسب والمشتقات

نظرية فلفريدو باريتو عن صعود وسقوط النخب السياسية

(مع أمثلة تطبيقية على مشكلات السياق العربي)

● الناشر نحو علم اجتماع تنويري للدراسات والأبحاث الإنسانية والسوسيولوجية

● ماردين - الطبعة الأولى - لعام 2025

● كتاب إلكتروني - عدد الصفحات (71) - القياس (16×22)

● @ enlightenment980@gmail.com

فهرس الموضوعات

" السـلطة تبقى في يد النخبة ما دامت قادرة على موازنة النزعات الغريزية والمعتقدات التي تمنح أفعالها الشرعية الاجتماعية "

" صـعود النخبة يحدث عندما تتكيف مع التحولات الاجتماعية وتوظف قدراتها الابتكارية للحفاظ على مكانتها "

" تداول النخب ظاهرة طبيعية، فالزمن يكشف ضعفها ويتيح المجال لصعود نخبة جديدة أكثر توافقاً مع التحولات المجتمعية "

" القوة الاقتصادية والسياسية وحدها لا تكفي لاستمرار النخبة، بل يجب أن تُدعم بالقدرة على تكييف الرواسب والمعتقدات "

د. حسام الدين فياض

المقدمة

يعتبر **فلفريدو باريتو** (1848–1923) أحد أبرز المفكرين الذين **صاغوا نظرية متكاملة حول طبيعة الإنسان ودوره في حركة النخب السياسية وصعودها وسقوطها**. ففي مؤلفه الضخم " **العقل والمجتمع** " طرح باريتو فرضية محورية مفادها أن معظم **الأفعال الإنسانية محكومة بدوافع لا منطقية**، أي إن العلاقة بين الوسائل والغايات لا تتبع بالضرورة نسقاً عقلانياً متماسكاً، بل تنبع من نزعات نفسية واجتماعية عميقة يطلق عليها " **الرواسب** " هذه الرواسب، وبحسب باريتو، تعد **البنية التحتية** التي توجه الفعل الإنساني، وتشمل نزعات الابتكار والتجديد من جهة، ونزعات الثبات والمحافظة من جهة أخرى، وهو ما صنفه تحت فئتي " **غريزة التكوين** " و " **ثبات التجمعات** ".

لكن **الإنسان لا يترك سلوكه عرضة لهذه النزعات وحدها**، بل يسعى دائماً إلى إضفاء طابع من **الشرعية والتفسير المنطقي** على أفعاله، من خلال ما سماه باريتو " **بالمشتقات** " أو " **المعتقدات التبريرية** " هذه الأخيرة لا تُنشئ السلوك من أساسه، بل تعيد **تأطيره في صورة عقلانية ترضي الحاجة المجتمعية إلى التفسير والانسجام الفكري**. ويكشف هذا التمييز الدقيق بين الرواسب والمعتقدات عن آلية اشتغال السلطة والخطاب السياسي، حيث تعمل النخب على تبرير دوافعها العميقة من خلال إنتاج إيديولوجيات متماسكة ظاهرياً، لكنها في جوهرها تعبير عن رواسب لا منطقية.

ومن هنا تتضـح **العلاقة الوثيقة بين النفس الإنسـانية وديناميات تداول السـلطة**. ففي نظرية " **صـعود وسـقوط النخب** "، يرى باريتو أن المجتمعات تخضـع **لدورة مسـتمرة من تداول النخب**، حيث تتناوب على السـلطة نخب ذات خصـائص متمايزة: فالنخب التي يسـود فيها عنصـر **الحيلة والمراوغة** تمثل نمط " **الثعالب** "، بينما النخب التي يغلب عليها **طابع القوة والصـلابة** تمثل نمط " **الأسـود** "، وعندما تفقد النخبة القائمة توازنها بين هذين النمطين، تتآكل شـرعيتها وتفسـح المجال لنخبة جديدة أكثر قدرة على تمثيل النزعات السائدة في المجتمع.

هذا التحليل لا يقتصـر على المسـتوى النظري، بل يمكن رصـده تاريخياً في **تحولات كبرى** مثل **الثورة الفرنسـية** عام 1789، حيث أفسـحت نخبة الإقطاع التقليدي المجال أمام نخب جديدة استندت إلى رواسـب الابتكار والتغيير، ثم ما لبثت أن فقدت بدورها قدرتها على التوازن مع بروز نخب أكثر محافظة. وكذلك في سـقوط **الإمبراطورية الرومانية**، حيث أدى الإفراط في الاعتماد على " **الثعالب** " من الساسة والدبلوماسيين، وتراجع قوة " **الأسود** "، إلى انكشاف الدولة أمام أزمات خارجية وداخلية.

وهكذا يبرز باريتو **الإنسـان باعتباره كائناً مزدوج البنية، حيث** تدفعه رواسـب لا منطقية راسـخة، بينما يسـعى في الوقت ذاته إلى تغليفها بمعتقدات عقلانية تمنحه الشـرعية. ومن خلال هذا المنظور، تصـبح دراسـة النخب السـياسـية ليسـت مجرد تتبع لموازين القوة أو الاقتصـاد، بل تحليلاً لكيفية تجسـيد هذه الرواسـب والمعتقدات في بنى السـلطة، وما يترتب على اختلالها من دورات متعاقبة لصعود وسقوط النخب.

وفي النهاية تضـمن الكتاب مبحثاً عن **تطبيق نظرية باريتو على النخب العربية المعاصرة في مجال السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية داخل المؤسـسـات الحكومية وبين جماعات الرفاق والأصـدقاء وأخيراً في فهم وتفسير مشكلة الطلاق**، بالإضافة إلى **نقد نظريته الصراعية عن صعود وسقوط النخب السياسية.**

****

الله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

ماردين 2025/09/29

د. حسام الدين فياض

الإنسان ما بين الرواسب والمشتقات

نظرية فلفريدو باريتو عن صعود وسقوط النخب السياسية

- **تمهيد**:

" التاريخ هو مقبرة من الطبقات الأرستقراطية " (باريتو)[1].

يعتبر **الصـــراع من أخطر العمليات الاجتماعية** نظراً لنتائجه الســـلبية الناجمة عنه لكونه تصادماً بين القوى الاجتماعية حينما تتحول المنافسة من إنســـانية إيجابية إلى شـــكل هدام، ومن هنا يحاول المنافســـون القضـــاء على الخصـــم ومن ثم الانقياد للأهواء الجامحة التي تســـيطر عليهم، بل ويحكمهم مبدأ البقاء للأقوى، ويســـتغل كل طرف جميع الوســـائل والطرق المشـــروعة والمحرمة للقضـــاء على الطرف الآخر المتصـــارع معه، بما في ذلك القتل، والاغتيال، الدسائس، والمؤامرات، والخيانة، والتنصت، الفتن، ... إلخ.

ويعرف **الصـــراع** بأنه " **العملية التي من خلالها يرغب كل فرد أو جماعة لتحقيق أهدافه الخاصـــة عن طريق إبعاد الخصـــم أو تحطيمه والقضـــاء عليه والذي يرغب في تحقيق الأهداف نفسها** ".

---

[1] علي ليلة: **النظرية الاجتماعية الحديثة (الأنساق الكلاسيكية)**، الكتاب: الثالث، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 2014، ص(295).

يسعى باريتو من خلال نظريته الصراعية إلى تفسير القوى الحقيقية التي **تحدد حالة التوازن داخل النسق الاجتماعي**، أي تفسير العناصر التي تعمل داخل النسق وتؤثر عليه بالتالي تتفاعل معه. **ويتضمن هذا الهدف التركيز على الديناميكية الاجتماعية للصراع والتغير بدلاً من دراسة النظم الاجتماعية الثابتة**[2].

ويرى باريتو أن **العناصر الأساسية** التي تكمن وراء تلك العمليات هي **عناصر فردية تتكون على مستوى الوحدة الصغيرة** وتتكون من **حالات نفسية (سيكولوجية) ومبادئ عقلانية** من إنتاج المجتمع تحدد بدورها السلوك الاجتماعي والعمليات الاجتماعية. وتستند رؤية باريتو على أساس طبيعي مؤداه النظر إلى **الرواسب باعتبارها عناصر أساسية لفهم المجتمع**.

بذلك **طور باريتو نظريته عن الصراع والتغيير الاجتماعي** التي تتناقض تناقضاً صارخاً مع النظرية الماركسية في حين ركزت نظرية ماركس على دور الجماهير، قدم باريتو **نظرية نخبوية بشأن التغيير الاجتماعي**، التي رأت أن المجتمع تهيمن عليه بصورة حتمية نخبة صغيرة تعمل على أساس المصلحة الذاتية المستنيرة هذه النخبة تحكم الجماهير الذين تهيمن عليهم الأفكار غير العقلانية وفقاً لنظام باريتو، فإنه لافتقار الجماهير إلى العقلانية، فمن غير

---

[2] محمد عبد السميع عثمان: **أسس علم الاجتماع – المفاهيم والقضايا**، كلية التربية، جامعة الأزهر، القاهرة، ط1، ب.ت، ص(374).

المرجح أن تكون هذه الجماهير قوة ثورية. يحدث التغيير الاجتماعي عندما تبدأ النخبة الانحطاط ويتم الاستعاضة عنها بنخبة جديدة مشتقة من **النخبة غير الحاكمة أو العناصر العليا من الجماهير، وبمجرد وصول النخبة الجديدة إلى السلطة، تبدأ العملية من جديد.**

نظرية باريتو عن الصراع الاجتماعي

يعد **فلفريدو باريتو** الإيطالي (1848 -1923) [3] من أبرز علماء الاجتماع الصراعين في إيطاليا والعالم. ظهرت نظريته الصراعية في كتابه الموسوم "

---

[3] **فلفريدو فريتز باريتو** هو من علماء الاقتصاد المشهورين، ولد في مدينة باريس الفرنسية يوم 15 يوليو 1848م وتوفي في مدينة جنيف السويسرية في 19 أغسطس 1923م، وهو عالِمٌ اقتصادي واجتماعي شهير وصاحب مبدأ باريتو المعروف بقاعدة 80-20 في علم الإدارة، وهو أيضا صاحب النظريتين الاقتصاديتين أمثلية باريتو وأفضلية باريتو وله مدرج إحصائي عرف باسم مخطط باريتو وكذلك توزيع باريتو الاحتمالي وهو صاحب المقولة الشهيرة التاريخ هو مقبرة من الطبقات الأرستقراطية. حصل على درجة الدكتوراه في الهندسة مما يعرف الآن بجامعة البوليتكنيك في تورينو (ثم المدرسة الفنية للمهندسين). كانت أطروحته بعنوان " **المبادئ الأساسية للتوازن في الأجسام الصلبة** ". يمكن إرجاع اهتمامه اللاحق بتحليل التوازن في الاقتصاد وعلم الاجتماع إلى هذه الورقة العلمية.

عمل باريتو - لعدة سنوات بعد التخرج - كمهندس مدني، أولاً لشركة السكك الحديدية الإيطالية التابعة للدولة ثم في القطاع الخاص. كان مدير الأعمال الحديدية لسان **جيوفاني فالدارنو** ولاحقاً المدير العام لأعمال الحديد الإيطالية. لم يبدأ العمل الجاد في الاقتصاد حتى منتصف الأربعينيات من عمره. بدأ مسيرته المهنية كمدافع شرس عن الليبرالية الكلاسيكية، مُزعجاً أكثر الليبراليين البريطانيين حماسة بسبب هجماته على أي شكل من أشكال التدخل الحكومي في السوق الحرة. في عام 1886، أصبح محاضراً في الاقتصاد والإدارة في جامعة فلورنسا. تميزت إقامته في فلورنسا بالنشاط السياسي، المدفوع في غالبه بسبب شعوره بالإحباط من الجهات التنظيمية الحكومية. في عام 1889، بعد وفاة والديه، غيّر باريتو نمط حياته، وترك عمله وتزوج من الروسية أليساندرينا باكونينا.

في عام 1893، خلف باريتو " **ليون والراس** " في منصب رئيس الاقتصاد السياسي في جامعة لوزان في سويسرا حيث بقي لبقية حياته. وفي عام 1906، أدلى بملاحظته الشهيرة القائلة إن عشرين بالمئة من السكان يمتلكون ثمانين بالمئة من الأملاك في إيطاليا، والتي عممها جوزيف م. جوران لاحقاً لتصبح " **مبدأ باريتو** " (المعروف أيضاً باسم قاعدة 80-20). أظهر في أحد كتبه التي نُشرت عام 1909 " **توزيع باريتو** " الذي يشرح توزيع الثروة «ضمن أي مجتمع بشري، في أي عصر، أو بلد». حافظ على علاقات شخصية ودية مع أفراد اشتراكيين، لكنه اعتقد دائماً أن أفكارهم الاقتصادية كانت معيبة بشدة. ثم لاحقاً، أصبح يشك في دوافعهم الإنسانية، وندد بالزعماء الاشتراكيين باعتبارهم يمثلون " **أرستقراطية قطاع الطرق** " وينهبون البلاد منتقدين حكومة **جيوفاني جيوليتي** لعدم اتخاذ موقف أكثر صرامة ضد الإضرابات العمالية. دفعته الاضطرابات المتزايدة بين العمال في إيطاليا إلى أن يتجه إلى معسكر مناهض للاشتراكية ومعاد للديمقراطية. أما موقفه من الفاشية في سنواته الأخيرة فيبقى مسألة مثيرة للجدل.

مقدمة في علم الاجتماع - ***Introduction to sociology*** " عام 1916 وهو مؤلف ضخم يقع في جزئين وتُرجم إلى الإنكليزية عام 1935 حيث صدر بعنوان: " **العقل والمجتمع** ***Mind and Society*** " أما قبل ذلك فقد نشر مجموعة من المقالات في السياسة والاقتصاد. ونشر أيضاً كتاباً بعنوان " **النظم الاشتراكية** ***Socialist systems*** " عام 1902 وكان عبارة عن تحليل نقدي للفكر الاشتراكي ولتدخل الحكومة في الاقتصاد.

يعتقد باريتو في نظريته الصراعية بأن **الصراع يكون بين النخبة والعوام**. ذلك أنه يعتقد بأن المجتمع ينقسم إلى طبقتين اجتماعيتين متخاصمتين هما: **طبقة النخبة وطبقة العوام**. وفي هذا السياق سنحاول **توضيح الإطار المفاهيمي لنظرية باريتو تمهيداً لفهم نظريته عن الصراع الاجتماعي من خلال مناقشة أفكاره عن دورة النخبة وتداول السلطة بين الثعالب والأسود.**

طُعِّمت علاقة باريتو بعلم الاجتماع في عصر تأسيسه العلمي بطريقة نموذجية منذ اللحظة التي أخذ فيها، بدءاً من الاقتصاد السياسي، بانتقاد الفلسفة الوضعية كنظام إجمالي وغيبي مجرد من الطرق التجريبية المنطقية الصارمة. وفي هذا المفهوم يمكننا أن نقرأ مصير إنتاج باريتو ضمن تاريخ العلوم الاجتماعية التي ما تزال تُظهر خصوصية ذلك الإنتاج والاهتمام بمساهماته في القرن الحادي والعشرين. تُعتبر قصة باريتو أيضاً جزءاً من نموذج البحث متعدد التخصصات لنموذج علمي يميّز علم الاجتماع كناقدٍ للنماذج التراكمية للمعرفة بالإضافة إلى كونه اختصاصاً يميل إلى تأكيد النماذج الترابطية للعلوم.

المبحث الأول

عناصر الإطار المفاهيمي والتحليلي في نظرية باريتو

في هذا العنصر التأسيسي سيتم شرح وتوضيح أهم المفاهيم التي بنى عليها باريتو نظريته عن الصراع الاجتماعي، وهي كالآتي:

1- **طبقة النخبة**: جماعة من الأفراد يمتلكون خصـــائص مميزة تجعلهم أكثر قدرة على التميز في أداء أدوار شـــديدة الأهمية في حياة مجتمعاتهم ولا ســـيما مجال توجيه المجتمع واتخاذ القرارات الســـيادية المهمة في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

ويرى كثير من الباحثين أن اسـتخدام كلمة **النخبة *Elite*** حديث نسـبياً في اللغتين الفرنسية والإنكليزية، حيث استخدمت هذه الكلمة لأول مرة في القرن الســابع عشــر- كما يورد **توم بوتومور** في كتابه " **الصـفوة والمجتمع** "[(4)]. ومن ثم اسـتخدم هذا المفهوم في عام 1823 لوصـف النخب الاجتماعية وأوضـاع الحياة الطبقية في أوروبا بصـورة عامة، ومن ثم شـاع اسـتخدام هذه الكلمة بين صفوف المفكرين والباحثين في نهاية القرن التاسع عشر ليعبّر عن الفئات الاجتماعيـة الأكثر تميزاً في المجتمع تلـك التي تحتـل مكـانـاً مميزاً في الهرم

(4) انظر توم بوتومور: **الصـــفوة والمجتمع (دراســـة في علم الاجتماع الســـياســـي)**، ترجمة وتقديم: محمد الجوهري وآخرون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1988.

الاجتماعي ولا سيما في المجالات السياسية والعسكرية والثقافية. كما أن **النخبة** "***Elite***" تعبّر عن طبقة معينة أو شريحة منتقاة من أي نوع عام. وهي تعني أيضاً الأقلية المنتخبة أو المنتقاة من مجموعة اجتماعية، تمارس نفوذاً غالباً في تلك المجموعة، بفضل مواهبها الفعلية، أو الخاصة المفترضة.

بناءً على ما سبق صنف باريتو **النخبة** إلى صنفين هما: **النخبة الحاكمة والنخبة غير الحاكمة**. **فالنخبة الحاكمة**: هي التي تتكون من أفراد يحتلون مواقع الحكم والمسؤولية كالوزراء والمدراء العامين وقادة الجيش ورؤساء الجامعات والمؤسسات الكبيرة والمصانع والمزارع والمصارف. وهؤلاء الأفراد يؤثرون بطريقة أو أخرى على عملية سير الحكم ومسيرة الدولة من خلال مواقعهم السياسية ومن خلال القرارات الإدارية ذات المضمون السياسي التي يتخذونها في دوائرهم. أما **النخبة غير الحاكمة**: فتتكون من أفراد لا يحتلون مواقع وأعمال حساسة وبارزة ومهمة لا يستطيع المجتمع الاستغناء عن خدمات أعضائها مهما تكن الظروف. ومن أمثلة النخبة غير الحاكمة الطبيب والأستاذ الكبير والفنان الكبير والمهندس الكبير والمحامي الكبير والممثل أو المغني أو العازف الكبير.

2- **طبقة العوام**: تتكون من عامة الناس الذين لا يحتلون مواقع اتخاذ القرار والمسؤولية، أي إن أعمالهم لا تؤثر في أعمال ومصير ومستقبل الآخرين

كأعمال النخبة الحاكمة وغير الحاكمة. أن أفراد طبقة العوام يشغلون الأعمال الكتابية والروتينية واليدوية والأعمال الحرة التي لا تحتاج إلى خبرة أو موهبة أو دراسة طويلة. **وهذه الطبقة ليست موضوع اهتمام باريتو لأن تأثيرهم السياسي في المجتمع يكون منعدماً تماماً لأنها لا تمتلك الرواسب التي تؤهلها للحكم ولا بد أن يظلوا محكومين وخاضعين للنخبة (الصفوة).**

3- **الرواسب وطبيعتها**: يمكن تحديد الرواسب باعتبارها تتشكل من المبادئ الأساسية الكامنة وراء الوجود المنظم للمجتمع. يذهب البعض إلى أن الرواسب تعتبر تجليات للعواطف أو على الأقل لها ارتباط بالعواطف. وعلى هذا النحو فإننا نجد أن الرواسب ليست عواطف أو غرائز ولكنها مجموعة من الدوافع الدائمة نسبياً ذات علاقة بغرائز الإنسان ودوافعه، ومن ثم لها أبعاد بيولوجية ونفسية، وهي توجد في بنية شخصية المجتمع. غير أننا نجد أن الرواسب تستند في التحليل النهائي إلى الغرائز، وإن كانت الرواسب تختلف عن الغرائز بكونها ليست صارمة، وتتجلى عادة من خلال أشكال متنوعة تصل إلى حد التناقض. مثال ذلك الغريزة الجنسية تتجلى من خلال أفعال الجماع الجنسي وهو الشكل الأساسي للإشباع. على خلاف الرواسب الجنسية التي تتجلى عادة من خلال أشكال متنوعة كالتثقيف الجنسي والإدانة المتقشفة للشهوة الجنسية.

تلعب **الرواســب دوراً محورياً في تحديد طبيعة التوازن الاجتماعي** وعليه يمكن القول إن الرواســب " عبارة عن مجموعة من المبادئ العامة ذات الأساس البيولوجي والنفسي الكامن داخل الذات الإنسانية. وهذه الرواسب تتجلى على شكل سلوكيات اجتماعية محددة تشكل في مجموعها الوجود النفسي والاجتماعي برمته ". بناءً على ما سبق يمكن تعريف الرواسب بأنها " **الدو افع الحقيقية للسلوك الإنساني سواء كان هذا السلوك اقتصادي أو اجتماعي، ولكن باريتو يعتقد إن الرواسب غالباً ما تتعلق بالمشتقات** ". أو هي " **عبارة عن اتجاهات نفسية ثابتة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعواطف والغر ائز وتقع في مركز وسط بين العواطف والفعل الإنساني وأسماها بالرواسب لأنها ثابتة وغير متغيرة** ".

أكد باريتو على الدور الفاعل الذي تلعبه الرواسب في السلوك الاجتماعي والعلاقات الإنسانية ويجب توضيح أهمية الرواسب في النظرية الاجتماعية والاقتصادية عند باريتو، **لكننا إذا تأملنا جملة الرواسب التي قدمها باريتو سوف نجد أنها ستة رواسب بالأساس، وأن جميعها غير موزعة بالتساوي بين أفراد المجتمع. لذا سعى باريتو إلى تقسيم الرواسب إلى قسمين أساسيين هما:**

- **رواسب دورات النخبة:** نلاحظ أن من بين هذه الرواسب الستة راسبين أساسيين تكمن فاعليتهما الأقوى بين أفراد الصفوة (النخبة) بالأساس، وهما راسبي **الميل الغريزي إلى تأسيس الترابطات** حيث يكون هذا الراسب قوياً بين نخبة الثعالب الذين يوجدون في مختلف المجالات. وراسب الحفاظ على استمرار التجمع أو المجتمع، الذي يوجد بقوة بين نخبة الأسود وأن الحالة التي يتدخل فيها نوعي الرواسب في بناء النخبة، هي الفترة التي تكون فيها هذه النخبة في أضعف حالاتها[5].

أ- **رواسب إقامة الترابطات والتجمعات البشرية:** ويعني هذا الراسب امتلاك القدرة على التفكير والإبداع والخيال، كذلك يتميز حاملي هذا الراسب بالبيروقراطية لدفع البشر إلى بذل الجهود لتمكين التقدم الإنساني، سواء على المستوى الفرد أو المجتمع. يعمل البشر أو أفراد النخبة الذين لديهم هذا الراسب قوياً على تحقيق أو بناء الغايات أو الأهداف، وكذلك الدهاء والاحتيال بدلاً من المواجهة والعناد.

ب- **رواسب استمرارية التجمعات والترابطات:** حيث يؤدي إلى استمرار التجمعات، حيث تلعب تلك الرواسب دورها الهام في الحفاظ على بقاء أو استمرار هذه الترابطات بمجرد تأسيسها، إضافةً إلى التمسك بها والدفاع عنها

---

[5] انظر علي ليلة: **النظرية الاجتماعية الحديثة (الأنساق الكلاسيكية)**، مرجع سبق ذكره، ص(304 وما بعدها).

بطبيعة الحال. ويشــير وجود راســب اســتمرار التجمعات وبقاءها في إطار جماعة أو مجتمع معين إلى علاقة هذا الراســب بالتوازن الاجتماعي أو دورة النخبة.

ويشـير باريتو أن الراسـبين الأول والثاني ينحصـران بطبقة النخبة الأسـود والثعالب. فإذا كانت النخبة التي تسـيطر على المجتمع تشـغل سـلوكياتها عناصر راسب الحفاظ على استمرار التجمع فإنها تتسق في سلوكها مع سلوك الجماهير وطموحاتها، أما إذا ضعفت رواسب هذه النخبة، وأفسحت الطريق لنخبة أخرى ذات رواسـب قوية، هي رواسـب تأسـيس الترابطات، فإن التوازن الاجتماعي يهتز إلى أن تنجح الصـفوة الجديدة في مخاطبة الجماهير، خاصـة تلك التي تعكس رواسـبها، ومن ثم يسـتعاد الاسـتقرار والتوازن الاجتماعي من جديد.

- **الرواســب المؤســســة لوجود المجتمع**: وفي هذا الإطار قدم باريتو أربعة رواســب تعمل بالإضــافة إلى الراســبين الســابقين لتوجيه ســلوكيات الأفراد لتأسيس المجالات التي يتفاعل في إطارها البشر، والتي تشكل في مجملها وجود المجتمع. بمعنى أدق هي الرواسـب التي تحدد السـلوكيات العامة للجماهير بما فيها النخب. وتضم هذه المجموعة الرواسب التالية:

ج- **رواســـب التعبيرعن العواطف بواســـطة بأفعال خارجية:** توجد هذه الرواسب عند عامة البشـر وتتمثل الوظيفة الأسـاسـية لهذا الراسـب في ربط الإنسان الفرد من داخله بالوجود الاجتماعي الخارجي.

د- **رواســـب تكوين المجتمعات والانتماء إليها (الألفة الاجتماعية):** تشـــير مجموعة الرواســـب هذه إلى الحاجة إلى التوافق مع الآخرين والاتحاد معهم في إطار حالة الاجتماع والمجتمع. ويؤكد باريتو أن هذه لرواســـب ترتبط بالحياة بالمجتمع بكل المعاني المتضـــمنة ذلك، تأكيداً لذلك نلاحظ حاجة البشـــر في المجتمع إلى تأليف الجماعات أو اتحادات معينة تضمهم.

هـ- **رواسـب تكامل الشـخصـية:** تؤكد هذه الفئة من الرواسـب على وجود نوع من التكامل بين الفرد أتباعه أو ممتلكاته. وتتكامل رواســـب هذه الفئة مع رواسب المجموعة السابقة، وتشير العواطف الفطرية أو المكتسبة، التي تدفع الإنسان إلى الدفاع عن ممتلكاته، بل العمل الجاد على زيادتها، ويرى باريتو أن هناك علاقة بين هذه الرواسب والتوازن الاجتماعي في المجتمع.

و- **رواسـب الغريزة الجنسـية:** يرى باريتو أن رواسـب الجنس تشـكل منطقة غريزية في بناء الإنسـان، ولذلك فإن هذا الراسـب يتميز بالطبيعة البيولوجية التي دفعت تطوير بعض الجوانب الثقافية المرتبطة بهذه الرواســـب، ونظراً لمحورية هذه الرواســـب فإننا نجدها تتجلى من خلال مشـــتقات عديدة

ومتنوعة، مثل سلوكيات التقشف والتمسك، حيث يتجه بعض البشر إلى الحديث المتزايد عن الفضيلة أو التبشير بها، كوسيلة للتسامي بأفكارهم المرتبطة بهذه الرواسب ومحاولة لفرضها داخل الذات وعند الآخرين.

إن **عملية تصنيف باريتو للرواسب** - حسب وجهة نظري- تمكننا من تطبيقها في الواقع وذلك لأنها تتفق مع طبيعة البشرية من حيث إن عدد من أفراد المجتمع يولدون بإمكانيات فطرية تؤهلهم لأن يحتلوا أدواراً ومكانات مناسبة لهم في المجتمع مما يؤدي إلى إحراز عملية التقدم والإبداع والتطوير فضلاً لما يمكن أن يساهم في استقرار وتوازن البناء الاجتماعي، وذلك من خلال وجود راسب الربط والتوليف من حيث وجود عدد من الأفراد يمكنهم القيام بالاختراعات والابتكارات والذي من شأنه يسهم في تقدم المجتمع وتشكيل الحضارات واللحاق بركب التطور بالمجتمعات المتقدمة، وأيضاً وجود راسب المحافظة على التجمعات والارتباطات وذلك عندما يمتلكه الأفراد فإنه يؤدي إلى الحفاظ على المجتمعات من الزوال والاندثار، وأيضاً راسب الحاجة عن التعبير عن المشاعر والتي تتمثل في قيام الافراد في أداء العبادة والشعائر الدينية والذي من شأنه يشعر الأفراد بأنهم وحدة واحدة نتيجة لاشتراكهم في كثير من المظاهر الدينية والروحية والذي يعزز من تماسكهم وأيضاً لما يمثله من مظاهر الثقافة المشتركة، وأيضاً من خلال رواسب التكامل الذاتي والشخصي والتي تؤدي بالفرد إلى ضبط انفعالاته

وســـلوكياته نظراً لأنها تتعلق بمكانه الفرد وســـمعته والتي من شـــأنها توطد علاقة الفرد مع الآخرين مما يســـهم في تماســـك البناء الاجتماعي، وأخيراً ما يتصـل برواســب الجنس والتي تهذب من ســلوكيات الأفراد في عملية التعامل مع العلاقة الجنســـية اســـتناداً على معايير والقيم الثقافية للمجتمع والتي تتخلف عن القيم الثقافية للمجتمعات الغربية والتي تبيح العلاقة الجنســـية خارج الزواج من منطلق حرية الأفراد الخاصـــة والتي تختلف عن معايير المجتمعات العربية المحافظة التي تُشـــرّع ممارســـة هذه العلاقة الفطرية بين الزوجين فقط وهذه المعايير المتفق عليها بين أبناء الشـعب الواحد تســاهم في تماسك أبناء المجتمع الواحد الذي يعزز تماسك البناء الاجتماعي.

خلاصـــة القول، إذا كان " **ماركس** " يرى أن الفروق في القدرات والإمكانيات ناتجة عن الاختلافات القائمة في الأوضـــاع الاقتصـــادية والاجتماعية بين الناس، فإن " **باريتو** " ينظر للمســـألة نظرة عكســـية تماماً، حيث إنه **ينظر إلى هذه الفروق على أنها الســـبب وراء الاختلاف في المســـتوى الاجتماعي، ويرى أنها هي المحدد الأســـاســـي للتركيب الطبقي في المجتمع، ولذلك فإنه من السهل أن نقول بأن " باريتو " يعد من رواد التفسير السيكولوجي للطبقات الاجتماعية.** ومعنى ذلك أن النخبة لدى باريتو ليســـت نتاجاً لفعالية تاريخية اقتصادية كما يرى ماركس، ولا تستند في قوتها إلى قدراتها التنظيمية على نحو ما ذهب موسكا وميتشل، بل هي نتاج لما يسميه باريتو **بالرواسب** ***Residues***

وهي نوع من الخصائص السيكولوجية التي يتمايز من خلالها أفراد المجتمع، **وقد دأب باريتو على استخدام مفهومه السيكولوجي عن الرواسب لوصف الميول السيكولوجية الفطرية القيادية في الإنسان.**

4- **المشتقات وطبيعتها**: هي **التبريرات العقلانية والمسوغات الفكرية للسلوك الاجتماعي** أو **الاقتصادي**، تستند المشتقات على الرواسب، فالرواسب هي قاعدة السلوك ومنطلقه الحقيقي. بينما المشتقات هي الوسيلة التي تبرر السلوك الإنساني وتدعم شرعيته بحيث يكون مقبولاً ومتوافقاً مع حقيقة العالم الخارجي.

بذلك ينظر باريتو إلى **ثنائية الرواسب والمشتقات** باعتبارها انعكاساً لثنائية الفرد والمجتمع، وعلى هذا النحو فنحن نصنف بامتياز باريتو باعتباره من رواد المدخل الفردي، الذي يرى في وجود المجتمع نتيجة مباشرة لوجود الأفراد. حيث يرى باريتو أن ذات الفرد تحتوي على مجموعة فئات الرواسب التي تشكل في مجموعها المجتمع الخارج عن الفرد بمجالاته المختلفة. وإذا كان المجتمع يحتوي على ما هو اجتماعي وما هو ثقافي فإن كلا البعدين هو انعكاس لمستويين من الآثار والنتائج الناتجة عن فاعلية الرواسب. وإذا كان باريتو قد رأى أن الرواسب من الممكن أن تدفع البشر إلى إنجاز أفعال معينة، فإن هذه الأفعال، حينما تلتقي بأفعال الآخرين تشكل ما يمكن أن يسمى

بـالتفـاعـل الاجتمـاعي، ثم العمليـات الاجتمـاعيـة ثم النظم أو المجـالات الاجتماعية للمجتمع. **وحينما تنظر إلى التبريرات اللفظية التي يقدمها البشر لأفعالهم، فإن هذه التبريرات تشـكل مكونات أسـاسـية في البناء المعنوي والثقافي للمجتمع. لذلك نجد أن المجتمع يتشـكل من جملة المشـتقات التي لها وجودها الخارجي عن الفرد والتي تعد انعكاسـاً لرواسـبه الكامنة في داخل.**

بناءً على ما يذهب إليه باريتو، تشـير **المشـتقات إلى التعبير أو التجلي الخارجي للرواسـب، ويتجه باريتو إلى تحديد المشـتقات باعتبارها الأفعال والتبريرات التي يسعى في إطاره البشر أن يجعلوا سلوكهم غير المنطقي يبدو وكأنه منطقياً**. في هذا الإطار نجدهم يقدمون في العادة تفسـيرات منطقية زائفة لأفعالهم، ثم يعتقدون - خطأ - أن هذه التفسـيرات سـبباً لسـلوكياتهم. وعلى هذا النحو لا تشـتق المشـتقات الأفعال أو التبريرات اللفظية قوتها من الاعتبارات المنطقية أو التجريبية، ولكن من الرواسـب والعواطف المرتبطة بها أسـاسـاً. وإذا كانت المشـتقات مشـتقة من الرواسـب الفردية، **فإن انتشـارها يسـتند بالأسـاس إلى سـلطة المأثورات والمعاني السـائدة في المجتمع**، أو إلى سلطة الأفراد المسيطرين في المجتمع، أو إلى سلطة قوى ما رواء الطبيعة. غير أن هذه المشـتقات تعتبر في التحليل النهائي مجرد لغو كلامي ليس له طبيعة

جوهرية، إذ يكمن جوهرها في مختلف فئات الرواســب والعواطف المرتبطة بها.

وارتباطاً بذلك يرى باريتو أنه حينما **يتجه الباحث إلى دراســة الســلوك البشــري**، فإنه يدرس في الحقيقة الظواهر الاجتماعية باعتبارها تجليات أو إظهارات للنشـاط البشـري، التي تعتبر نواتج للرواسـب الكامنة في عمق الذات الإنسانية. وفي هذا الإطار فإنه برغم تنوع المشتقات، فإن الرواسب التي تدفع إلى ظهورها تعتبر الجوهر الحقيقي في كل الثقافات. **مثال على ذلك أننا نجد أن كل الثقافات تدين السرقة، باعتبارها تهز توازن رواسب تكامل الفرد مع توابعه غير أن كل ثقافة تقدم تبريراً مختلفاً لإدانتها لهذا السلوك السرقة، وبعبارة أخرى فإن القضــية الجوهرية تتمثل في وجود عدد من المشــتقات التي ترتبط بفئة واحدة من الرواســب التي لها فاعليتها الواضـحة في وجود هذه المشــتقات كتجليات لها، وبرغم تنوع هذه المشــتقات فإنها تشــترك في جذر واحد يتمثل في فئة الرواسب المحددة.**

ويســتنتج باريتو من **تأمله لتنوع المشــتقات إلى أن الســبب الحقيقي لها ينبغي البحث عنه في فئة الرواســب الكامنة في عمق الذات الفردية**. مثال ذلك أن البشــر في كل مكان يعتقدون في مجموعة من الحقائق الموضــوعية المتعلقة الإله والروح والتقدم والحرية والعدل، وأن هذه الحقائق قد تتفق أو

تختلف بالنظر إلى بعضها البعض أو بالنظر إلى السياقات الاجتماعية والثقافية المختلفة، مثل اختلاف النظرية الدينية والفلسفية والأخلاقية التي تسعى لتفسير هذه الحقائق أو الموضوعات، غير أن تكتشف دائماً وجود حقيقة أو التقاء مشترك يؤكد على وجود جذور كل هذه التكوينات المتباينة في عنصر واحد، ثابت ودائم لا يتغير، يتمثل في هذه الحالة في فئة الرواسب الثانية، التي تؤكد على الميل إلى المحافظة على استمرار الجماعة وتحقيق التكامل الاجتماعي. واستناداً إلى ذلك يذهب باريتو إلى أنه من غير المفيد، أو من قبيل ضياع الوقت أن نناقش مدى مصداقية مذهب أو عقيدة معينة على معتنقيها باعتبارها منطقية أو حقيقية. أعنى المناقشة المتعلقة بالوجود التاريخي لرموز هذه المعاني أم لا. بل إنه على الإستراتيجية العلمية التي تسعى لتقديم فهم أو تفسير للحقائق، أن تتجه إلى تحليل إنسان المعتقدات المختلفة بهدف التعرف على مصادرها المشتركة المتمثلة في الرواسب الأساسية التي تشكل طاقتها الدافعة. حيث يصبح هذا الجهد هو الأسلوب الوحيد الذي يمكن أن يساعد في تقدم العلم، وإيضاح تحقيق درجة من التنوير.

خلاصة القول، يصنف باريتو المشتقات (**أي الأساليب التي يلجأ إليها الناس ليخفوا بها حقيقة أفعالهم ويبرروها**) إلى عدة فئات هي: (1) مجرد التأكيد ***Simple affirmation*** أي ذكر حقائق واقعية أو متخيلة. (2) اللجوء للسلطة ***Authority*** أي للتفسير الكاذب للأحداث عن طريق الاستعانة بقوة

وسحر الماضي والتقاليد والعادات. (3) الاتفاق مع العواطف أو المبادئ ***accord with sentiments or principles*** وهي المشتقات التي تحاول تبرير الأفعال غير المنطقية على أساس الحقيقة المفترضة بأنها من أجل صالح الآخرين. (4) البراهين اللفظية ***Verbal proofs*** والتي تعني استخدام ألفاظ لا تتفق مع الحقائق واستخدام التشبيه والبلاغة.

وقد رأى باريتو أن هذه المشتقات ليست سوى **أسباب كاذبة يقيمها الناس لسلوكهم**. فالحقيقة في رأيه أن الناس لا يقومون في البداية **بصياغة أفكار ونظريات ثم يتصرفون تبعاً لما تمليه عليهم أفكارهم ونظرياتهم ولكن العكس هو الصحيح فالناس يتصرفون أولاً ثم يبحثون عن أفكار ونظريات تبرر تصرفاتهم** وليست هناك علاقة سببية بين الفكر التبريري (المشتقات) والفعل ***action*** فكلاهما نتاج الغرائز أو عواطف أساسية ثابتة هي الرواسب ***residues*** ويرمز باريتو للعاطفة الإنسانية، وهي المصدر الأساسي للفعل غير المنطقي بالرمز (أ) وللنظريات التي يفسر الناس بها سلوكهم (المشتقات) بالرمز (ب) والفعل بالرمز (ج).

ويقصد باريتو القول بأنه على الرغم من أن هناك علاقة اعتمادية مبادلة بين (أ، ب، جـ) أي بين العواطف أو الرواسب والفعل والمشتقات) إلا أن (أ) تؤثر بشكل مستقل على كل من (ب، جـ) أي إن العواطف هي السبب المباشر

لكل من الفعل والمشـتقات أكثر من تأثير ب (أي المشـتقات) على جـ (أي الفعل) [6].

وقد أفرد باريتو جزءاً كبيراً من مجلده (**مقدمة في علم الاجتماع**) لتحليل ما أسـماه الفلسـفة العملية أي فلسـفة عصـر التنوير وخاصـة النظريات الاشتراكية بوصفها أساطير لتبرير أفعال غير منطقية أي بوصفها مشتقات.

5- **الأفعال**: هي تلك التصـرفات الظاهرة والملموسـة ***concrete*** التي يمكننا ملاحظتها. وهذه الأفعال أما **منطقية *Logical*** أو **غير منطقية *Non logical*** وقد سـلّم باريتو منذ البداية أن غالبية أفعال الإنسـان غير منطقية. وقد عرف باريتو **الأفعال المنطقية** بأنها " **تلك التي تسـتخدم أسـاليب مناسـبة لأهدافها والتي تربط بين الأساليب والأهداف ربطاً منطقياً** ". وهذا النوع من الأفعال لا يتوفر إلا في المجال العلمي والاقتصـادي، أما ما عدا ذلك من المجالات فالغلبة للأفعال غير المنطقية، فالإنسـان بطبعه لا عقلاني وتحركه قوى غير منطقية والأفعال غير المنطقية تنجم أساساً عن حالات سيكولوجية وعواطف ومشاعر لا شـعورية، **ووظيفة علم النفس هي بحث هذه الحالات ووظيفة علم الاجتماع هي وصـف الأفعال غير المنطقية وتصـنيفها وربطها بالعواطف أو بالرواسـب الثابتة المؤدية إليها وبالتبريرات الفكرية التي**

---

[6] سمير نعيم: **النظرية في علم الاجتماع (دراسة نقدية)**، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1985، ص(141).

يقدمها الإنسـان لأفعاله غير المنطقية هذه وليس من وظيفة علم الاجتماع دراســة الأفعـال المنطقيـة. وعلى ذلـك فحين يقرر بـاريتو **أن هـدف علم الاجتماع هو دراسـة المجتمع الإنسـاني بوجه عام وتقديم نظرية عامة عن المجتمع فـإنـه يعنى دراســة السـلوك أو الفعـل غير المنطقي ودوافعـه وتبريراته وما يترتب على ذلك من تنظيمات اجتماعية.**

هذه هي عناصـر التحليل الأسـاسـية في نظرية باريتو: الرواسـب والمشـتقات والفعل وقد استخدام باريتو هذه العناصر في تحليل المجتمع الإنساني ونظمه المختلفة. ويتضـح من خلال عرضـنا لهذه العناصـر أن باريتو قد اسـتند إلى المسلمات التالية:

(أ) إن أسـاس الواقع الاجتمـاعي سـيكولوجي وفطري وبيولوجي (**الغرائز، والعواطف، والرواسب**).

(ب) إن هذا الأسـاس **السـيكولوجي ثابت و أبدي** وأن هناك فروقاً ثابتة بين الناس وبعضـهم البعض سـواء بوصـفهم أفراداً في مجتمع واحد أو بوصـفهم مجتمعات مختلفة. فكل من الناس يولد مزوداً بدرجة معينة من كل الرواسب الست التي تحدث عنها وحظه من هذه الرواسب هو الذي يحدد مصيره.

(ج) إن الإنسان غير عقلاني وغير منطقي بطبعه.

(د) إن الفكر في المجتمع نتائج للغرائز وليس سوى تبرير لها.

وهذه المسلمات التي يقيم عليها باريتو نظريته لا تنهض عليها أي أدلة إمبيريقية، بل إن الأدلة تنفيها في الحقيقة. وما حاول باريتو أن يقدمه كأدلة على صدقها ليس سوى على حد تعبير زايتلين، أمثلة انتقاها بطريقة عمدية من التاريخ ولا تزيد عن محاولة من جانبه لإيضاح فكرته وهذه المسلمات ذات طبيعة ميتافيزيقية وتتنافى تماماً مع ما إدعاه باريتو من صفة العلمية. كما يؤكد كوزر أن هذه المسلمات التي استند عليها باريتو قد ساعدته في تبرير إيديولوجيته وموقفه السياسي الذي طغى على جميع كتاباته. وقد استخدم باريتو هذه المسلمات في تفسير الحركات الاجتماعية التي يعارضها وفي تفسير التغير الاجتماعي وديناميات التاريخ.

المبحث الثاني

دورة النخبة وتداول السلطة بين الثعالب والأسود

يذهب التراث السوسيولوجي إلى أنه إذا كان كارل ماركس يعتبر المفكر الذي نظر للبروليتاريا، فإنه يمكن اعتبار باريتو، بنفس القدر، هو المفكر الذي نظر **للبرجوازية (النخبة)**، وإذا كان كارل ماركس قد شخص أصول حول البروليتاريا ورسم لها الطريق إلى السلطة لبناء المجتمع الاشتراكي فالشيوعي من خلال تحويل البرجوازية إلى بروليتاريا، وتحرير الدولة، فإننا نجد أن باريتو قد ناضل الرسم إستراتيجية تستطيع بها النخب البرجوازية تبادل السلطة وإمكانات القوة عازلة الجماهير عن الحركة التاريخية المتفاعلة، **فالتاريخ تصفه النخب بعيداً عن تدخل الجماهير**. في هذا الإطار يتطلب فهم نظرية الصفوة عند باريتو ضرورة التعرف على عدة قضايا أساسية، أولها، ما هي طبيعة النخبة، وأبعاد التحديد العلمي لها. ثم ما هي الاعتبارات الأساسية التي يمكن بالنظر إليها تناول قضية النخبة، إضافة إلى تناول خصائص النخب، ثم طبيعة دورة النخب في النموذج النظري لباريتو وسوف نحاول فيما يلي تناول مختلف هذه القضايا[1].

---

[1] انظر علي ليلة: **النظرية الاجتماعية الحديثة (الأنساق الكلاسيكية)**، مرجع سبق ذكره، ص(328).

صنف باريتو الرواسب فيما يتعلق بدورة النخبة إلى مجموعتين: تتمثل المجموعة الأولى في رواسب التأمل والتفكير لتأسيس الترابطات (الثعالب)، وتتمثل الثانية برواسب البقاء والنظام والاستقرار (الأسود). ويوضح باريتو في هذا السياق أن هذه الرواسب تؤهل بعض أفراد المجتمع للوصول إلى مرتبة النخبة وممارسة السلطة بينما يفتقد إلى ذلك الأكثرية الكبيرة من أفراد المجتمع، ويتوسع باريتو في رؤيته هذه إذ يرى أن نمط الحكم وصورته يتحددان على أساس نوعية هذه الرواسب التي يتمثل أفضلها في النخب. **فرواسب التأمل والتفكير تمكن النخبة** من الحكم عن طريق الاقناع والترغيب، وترتكز على بناء التصورات والإيديولوجيات للسيطرة على الجماهير واستلابها، ولكن عندما تهيمن **رواسب البقاء والنظام فإن النُّخبة** تحكم بالقوة والهيمنة وتعمل استخدام أساليب القمع والتسلط والترهيب.

بمعنى آخر. إن رواسب دورات النخب تؤدي إلى أن تتشكل نخبتين: نخبة " **الثعالب** " ونخبة " **الأسود** ". وفي الحالة الأولى يكون الراسب قوياً فيحدد طبيعة النخبة الحاكمة في مختلف المجالات. وفي الحالة الثانية تبدأ الرواسب في الضعف، وهو الأمر الذي ينعكس على ضعف النخبة، وإذا أدركت النخبة ذلك، فإنها تدعم ذاتها بعناصر لديها ذات رواسبها من بين الجماهير، وتستمر في جذب هذه العناصر حتى تستعيد النخبة قوتها، وتحافظ عليها قوية بصورة مستمرة. وفي الحالة الثالثة تضعف

رواسب النخبة بدون أن يتم دعمها بعناصر من بين الجماهير لديها ذات الرواسب، وبذلك فهي تندفع إلى طريق الانهيار، لتقفز عليها النخبة المقابلة، وتستولي على الحكم بمعاونة الجماهير التي لديها ذات الرواسب المقابلة وبذلك يتحقق التغير الاجتماعي.

يعني ذلك أن باريتو يؤكد على **وجود نخبتين وجماهير خاضعة لها**، نخبة تحكم مزودة برواسب تأسيس الترابطات، قادرة على التجديد وتمتلك مهارة الحكم وأساليب الخداع التي بواسطتها تحافظ على السلطة تحت سيطرتها. غير أن هذه النخبة قد تضعف رواسبها بمرور الأجيال خاصة إذا ضمت لبنيتها عناصر لديها ذات الرواسب من بين الجماهير. ومن ثم يصبح مقدراً عليها أن تخلي الطريق النخبة جديدة تمتلك رواسب قوية تؤهلها للإمساك بالسلطة والسيطرة على الحكم. كل ذلك يحدث على مستوى الصفوات (النخب) بينما الجماهير بعيدة عن هذا التداول السياسي بين النخب، تحكمها جملة الرواسب التي تؤكد على ما هو قائم. ذلك يعني أن باريتو يطرح فئتين من الرواسب، أحدهما تؤكد على التغيير وفرض انهيار المجتمع القائم في مواجهة أخرى تؤكد على ما هو قائم وتحافظ عليه وتتمسك به، وأن فئات الرواسب هذه تؤدي فاعليتها على مستوى النخب، بينما الجماهير بعيدة تحكمها رواسب استمرار المجتمع والحفاظ على بنائه.

ويرى باريتو أن من خصائص **نخبة الأسود** الذين يقوى لديهم راسب الحفاظ على بقاء واستمرار التجمع ميلهم إلى السلوك المباشر، والرغبة في الصراع الصريح والقبول به إضافة إلى الميل إلى المواجهة لتجاوز العقبات دون الالتفاف أو الدوران حولها إلى جانب الميل إلى استخدام القوة، كما يميلون إلى النزعة التقليدية حفاظاً على ما هو قائم بدلاً من الميل إلى التجديد. كما يغيب الدهاء والمكر والحيل عن ممارسات هذه الفئة. إلى جانب ذلك يعني راسب الممارسات والمعتقدات الأخرى التي تستمر عبر فترات طويلة من الزمن بمعنى أدق تعتبر هذه النخبة **تمثل القوى المحافظة اجتماعياً والأشخاص الذين ينتمون إليه لديهم مشاعر قوية بالولاء للأسرة والقبلية والمدينة والأمة وتظهر لديهم النزعات الوطنية والدينية ولا يهاجمون ويلجؤون إلى استخدام القوة والعنف عندما يجدون ضرورة لذلك.**

ويشير وجود راسب استمرار التجمعات وبقاءها في إطار جماعة أو مجتمع معين إلى علاقة هذا الراسب بالتوازن الاجتماعي أو دورة النخبة. وذلك يرجع إلى أن الجماهير يقوى لديها راسب استمرار التجمع والحفاظ على بقائه، بحيث يؤدي تأكيدها على الراسب إكسابها طابعها القومي. فإذا كانت النخبة التي تسيطر على المجتمع تشغل سلوكياتها عناصر راسب الحفاظ على استمرار التجمع فإنها تتسق في سلوكها مع سلوك الجماهير وطموحاتها، أما إذا ضعفت رواسب هذه النخبة، وأفسحت

الطريق لنخبة أخرى ذات رواسب قوية، هي رواسب تأسيس الترابطات، فإن التوازن الاجتماعي يهتز إلى أن تنجح الصفوة الجديدة في مخاطبة الجماهير، خاصة تلك التي تعكس رواسبها، ومن ثم يستعاد الاستقرار والتوازن الاجتماعي من جديد.

أما **نخبة الثعالب** الذين لديهم راسب تأسيس الترابطات والذين يوجدون في مختلف المجالات، فعند ضعف وانهيار نخبة الأسود وحدوث الاضطرابات السياسية والاجتماعية يبدأ عناصر من نخبة الثعالب **بالتسلل إلى بناء النخبة ليصبح راسب تأسيس التر ابطات هو الأقوى بين الجماهير**، بحيث تصبح النخبة مختلطة أو انتشار الرواسب المتباينة بين الجماهير القائمة، بحيث تؤدي هذه الأوضاع إلى حالة اهتزاز التوازن الاجتماعي، سواء على مستوى النخبة أو الجماهير، ولتجاوز هذا الوضع القلق قد تقع الثورات، أو يؤدي تسلل بعض العناصر التي لديها هذا الراسب قوياً إلى بناء النخبة، فتفقد طبيعتها التي تتسق عادة مع ما هو سائد بين الجماهير، ونفس الأمر تقوم نخبة مضادة حينما تبدأ النخبة الحاكمة في الضعف والوهن، بسبب الضعف الذي أصاب رواسبها.

أي إن نمط (الثعالب) لديه استعداد فطري للحركة على المستوى الاقتصادي، فهو يستطيع الدخول في مشروعات مالية كبيرة وأن ينشئ ويدمج الشركات ويعيد الدمج بينها، وكذلك على المستوى السياسي حيث يستطيع أن يعقد الاتفاقيات السياسية وأن يكون قوى سياسية ويمزج

بينهما وأن يشيد إمبراطوريات سياسية والأشخاص الذين ينتمون إلى هذا النمط قادرون على الابتكار وعلى تجربة الجديد وعلى الخروج على المألوف ولكنهم لا يدينون بالولاء لأي مبادئ أو فضائل.

ويجب أن نشير إلى أن **الانتقال من النخب الأولى إلى الثانية** يكون سببه ضعف رواسب النخب الأولى، ولذلك فإذا عجزت عن جذب أعضاء من الطبقة الدنيا لديهم نفس رواسبها القوية، فإن تضطر إلى أن تعمل وفق سلوكيات تستند على رواسب غير رواسبها، ومن ثم تجد نخبة الأسود نفسها قد تحولت إلى ممارسة السلطة والحكم والإدارة بأساليب وممارسات تنتمي إلى رواسب الثعالب وبذلك تصبح فريسة سهلة لنخبة لديها رواسب الأسود القوية، تقفز عليها وتنزع السلكة والحكم فيها.

بالمقابل يخبرنا باريتو بأن الصراع الاجتماعي على **المستوى الماكروسوسيولوجي** أي المجتمع بأسره سيكون بين **النخبة والعوام ويرجع الصراع إلى رغبة النخبة باحتلال مو اقعها القيادية والحفاظ عليها لأطول فترة زمنية ممكنة وعدم اتاحتها المجال للعوام بمشاركتها في القوة والمسؤولية باستخدامها لرواسب البقاء وتأسيس التر ابطات.** بينما تريد طبقة العوام الوثوب الى مراكز النخبة واحتلالها للسيطرة على زمام القوة والحكم في المجتمع إذاً المنافسة الشديدة بين النخبة والعوام ترجع إلى رغبة كلا الطبقتين باحتلال مراكز القوة والمسؤولية، فالنخبة تريد الاستمرار بالمحافظة على مراكزها القيادية، بينما العوام تريد انتزاع

مراكز القوة والمسؤولية من النخبة. وهكذا نستطيع القول بأن سبب الصراع بين النخبة والعوام يرجع الى الرغبة في الاستئثار بالحكم واحتلال المواقع الحساسة في المجتمع.

لذا تدخل النخبة في صراع مع العوام لأنها تريد الحفاظ على مراكزها القيادية والحساسة، بينما العوام يدخلون في صراع مع النخبة لأن الأخيرة تمنع العوام من الوصول الى مواقع النخبة، وأن العوام معرضون إلى احتكار واستغلال النخبة لهم ومنعهم من تحسين أوضاعهم العامة والخاصة. غير أن عمليه الصراع بين النخبة والعوام تتمخض عن نجاح بعض العوام من الوصول إلى مواقع النخبة وسقوط بعض النخب إلى طبقة العوام. وهذه الظاهرة يطلق عليها باريتو بظاهرة دورة النخبة التي يعبر عنها بنظريته المعروفة بنظرية دورة النخبة، وهي النظرية التي توضح سقوط النخب إلى طبقة العوام وارتفاع بعض العوام إلى طبقة النخبة.

يعتقد باريتو بأن النخبة على العموم لا تستطيع الحفاظ على مراكزها بصورة دائمة بل تتعرض للسقوط والنزول إلى العوام وذلك للأسباب الآتية[2]:

[2] إحسان محمد الحسن: **النظريات الاجتماعية المتقدمة – دراسة تحليلية في النظرية الاجتماعية المعاصرة**، دار وائل للنشر، عمان، ط3، 2015، ص(133-134).

1. تعرض النخبة للكبر والهرم والعجز وعدم القدرة على الاستمرار باحتلال مراكز القوة والتأثير.

2. عدم كفاءة النخبة بأداء المهام المطلوبة منها بسبب عوامل الكسل والحذر والترهل. فعندما تتعود النخبة على احتلال المراكز القيادية لمدة طويلة تتعرض إلى أمراض السأم والرتابة والروتين والملل. وهذه الأمراض تشل حركتها وتعطل نشاطها.

3. إحالة النخبة الى التقاعد بسبب المنافسة الشديدة بين أفرادها.

4. تعرض النخبة إلى حالات فضائح مالية أو سياسية أو أخلاقية مما عن ذلك سقوطها واختفائها.

5. تعرض النخبة إلى التآمر من قبل العوام إذ أن باريتو يسمي النخبة بطبقة الأسود ويسمي العوام بطبقة الثعالب فالثعالب يحفرون من تحت أرجل الأسود للإيقاع بهم واحتلال أماكنهم.

وهنا يقول باريتو بأن **الارستقراطية هي مقبرة التاريخ**، أي إن التاريخ يشهد سقوط وفناء الارستقراطية، والدليل على ذلك هو الذهاب الى المقابر التي نشاهد فيها رموز النخبة والارستقراطية من ملوك وأمراء وضباط كبار ورؤساء ووزراء.... إلخ .

بناءً على ما تقدم نستنتج بأن سبب الصراع بين النخبة والعوام يكمن في الرغبة في الحصول على مراكز القوة والحكم، وأن أطراف الصراع هي

النخبة والعوام وأن الصراع يقود إلى تحول المجتمع من مجتمع أقل ديموقراطية وإنسانية وحرية إلى مجتمع أكثر ديموقراطية وإنسانية وحرية.

المبحث الثالث

تطبيق نظرية باريتو على النخب العربية المعاصرة في سياقات اجتماعية مختلفة

تتميز **النخب العربية المعاصرة** بمزيج معقد من **الرواسب النفسية والاجتماعية والمعتقدات المؤسسة تاريخياً**، والتي تتفاعل مع ضغوط السياسة والاقتصاد والثقافة. وفقاً **لنظرية باريتو**، لا يمكن فهم صعود أو سقوط النخب إلا من خلال دراسة الرواسب والمعتقدات ، **إذ تشكل أساس استمرارية السلطة وتداول النخب.**

وفي السياق العربي، يظهر استمرار الميل إلى **المحافظة على الأبنية التقليدية**، سواء عبر **الولاء للعائلة أو الطائفة أو القبيلة، أو التمسك بالعادات والتقاليد الاجتماعية**، ما يمنح **النخب القديمة القدرة على فرض هيمنة مستمرة**، حتى في الدول التي تحاول تحديث مؤسساتها السياسية والاقتصادية.

تلعب **المعتقدات** دوراً محورياً في إعطاء هذه **الرواسب الشرعية**، إذ غالباً ما تستخدم لغة القانون والدين والإيديولوجيا لتبرير الممارسات السلطوية وخلق مظلة عقلانية على الواقع الاجتماعي، حتى في حالة وجود تناقضات بين الخطاب الرسمي والواقع الفعلي. غالباً ما تستخدم هذه

الاستراتيجيات في تقديم قرارات سياسية واقتصادية على أنها إصلاحية، بينما تبقى أدوات السيطرة التقليدية موجودة في الواقع. ويمكن ملاحظة ذلك في الأمثلة العامة للنخب التي تحافظ على نفوذها الاقتصادي من خلال التحكم في القطاعات الاستراتيجية، مع الحفاظ على تحالفات سياسية تضمن استمرار نفوذها.

تشير دراسة باريتو إلى أن **النخب الناجحة** تجمع بين **نزعة الثعالب، المتمثلة في القدرة على الابتكار والمراوغة وبناء الشبكات والتحالفات، وبين نزعة الأسود التي تعكس القدرة على الصلابة وفرض النظام والحفاظ على الهيمنة ضد المعارضة**. وفي السياق العربي، نجد أن بعض **النخب الاقتصادية والسياسية** التي استطاعت الجمع بين المرونة في التفاوض مع النخب الأخرى والصلابة في اتخاذ القرارات الاستراتيجية تمكنت من الحفاظ على استقرار نسبي، **بينما النخب التي غلبت عليها النزعة المرنة وحدها أو النزعة الصلبة وحدها شهدت ضعف الشرعية أو مقاومة مجتمعية متصاعدة**.

ووفقاً لباريتو، يمثل التداول بين القديم والجديد تحدياً مستمراً، فأي **نخبة معرضة للتآكل والتجدد بشكل دوري**. وفي الواقع العربي، كثير من النخب الصاعدة لم تتمكن من تأسيس **منظومة عقائدية** شاملة تضم مختلف شرائح المجتمع، ما أدى إلى ضعفها واحتوائها أو سقوطها، بينما حافظت النخب التقليدية على قدرتها على إعادة تعبئة الأبنية الاجتماعية

والتاريخية لصـــالحها. ويمكن ملاحظة ذلك في الأمثلة العامة للانتقالات السياسية، **حيث ظهرت وجوه جديدة طالبت بالإصلاح، لكنها غالباً لم تتمكن من جذب الشـــرائح الاقتصـــادية والثقافية الأوســـع**، فتم احتواؤها أو إعادة دمجها ضمن **الأبنية التقليدية**.

وفي **المجال الاقتصـــادي**، يمكن القول إن النخب التي تســـيطر على **الموارد الحيوية أو القطاعات الاســـتراتيجية تتمكن من المحافظة على نفوذها لفترات طويلة إذا اســـتطاعت المزج بين المرونة في الشـــراكات الاقتصـــادية والصـــلابة في حماية مصـــالحها الأســـاســـية**. أما في **المجال الثقافي والإعلامي**، فالنخب التي تســـتطيع التأثير على **الرأي العام وخلق خطاب جماعي مشـــترك، دون التخلي عن القواعد التقليدية للســـلطة**، تتمتع بقدرة أعلى على الاســـتمرار في الهيمنة، بينما تلك التي تتخذ مواقف متطرفة أو انعزالية تواجه تآكلاً سريعاً في النفوذ والشرعية.

تكمن **الفرصـــة الأكبر للنخب العربية المعاصـــرة** في توســـيع قنوات المشاركة واستيعاب الكفاءات والمواهب من الطبقات الوسطى والمهمشة، **إذ إن الانغلاق على الذات يؤدي إلى تآكل الشـــرعية وفقدان الثقة من قبل المجتمع**. في المقابل، فإن الاعتماد **المفرط على القوة وحدها أو على خطاب الإصـــلاح وحده** يهدد اســـتقرار النخبة، ويزيد من احتمالات الانقلابات أو الانتفاضـــات الشـــعبية، وهو ما يتضـــح من دراســـة تجارب النخب في بعض الأطر السياسية الحديثة.

في ضـوء هذه التحولات، يمكن القول إن **مسـتقبل النخب العربية يعتمد على قدرتها على مزج النزعة المرنة مع النزعة الصـلبة ضـمن مؤسـسـات حقيقية وشـرعية، لا مجرد شـعارات شـكلية**. هذا التوازن يضـمن تداولاً سـلسـاً للنخب، ويجدد الشـرعية، ويعزز شـعور المجتمع بالانتماء والمشاركة، وهو شرط أساسي لاستقرار طويل الأمد.

أما في سياق **المؤسـسـات والمنظمات الحكومية** في المجتمعات العربية نجد أنها **تواجه معضـلـة مسـتمرة تتعلق بتوازن القوى بين الأفراد والنخب العاملة داخل المؤسـسـة**، وهي ظاهرة يمكن تفسـيرها بوضـوح من خلال نظرية باريتو حول النخب وصعودها وتداولها. وفقاً لباريتو، أي مجتمع أو مؤسـسـة ينقسـم فعلياً إلى قسـمين: **نخبة تهيمن على اتخاذ القرار، وأغلبية تلتزم بالأنظمة والممارسـات التي تفرضـها هذه النخبة**. في المؤسسات الحكومية، يظهر ذلك جلياً من خلال التحالفات الداخلية، التي تتشـكل غالباً على أسـاس المصـالح المشـتركة، القوة التنظيمية، والعلاقات الشخصية.

فالتحالفات داخل هذه المؤسـسـات ليسـت **مجرد علاقات ودية**، بل **تمثل آلية للحفاظ على السـلطة والسـيطرة على الموارد. النخب داخل المنظمة تسـتخدم أسـاليب الثعالب لتشـكيل شـبكات مرنة تمكنها من المناورة والتفاوض، بينما تسـتخدم نزعة الأسـود لفرض القواعد والسـيطرة على القرار الرسـمي**. هذا المزج بين المرونة والصـلابة يتيح

للنخبة الحفاظ على مكانتها داخل المؤسسة، وتحديد سياسات العمل بما يخدم مصالحها، حتى وإن كانت تلك السياسات قد لا تتوافق مع الأهداف الرسمية للمؤسسة أو المصلحة العامة.

ومن **منظورسوسيولوجي**، يمكن فهم **التحالفات الداخلية على أنها مؤشرعلى تماسك النخبة وضعف الرقابة الهيكلية**. عندما تعتمد المؤسسة على تسلسل هرمي صارم دون إشراك فعلي للنخب الثانوية، فإنها تولد ديناميات مقاومة أو محاولات تحالف موازية لإعادة التوازن. وعلى العكس، المؤسسات التي تتيح مساحة للتداول الداخلي بين النخب تستطيع الحفاظ على استقرار أكبر، **لأن كل مجموعة تشعربأنها قادرة على المساهمة و اتخاذ القرارات في نطاق معين.**

كما تظهر في بعض المؤسسات الحكومية **تحالفات محددة على أسس جغر افية أومهنية أوسياسية**، بحيث تتشارك النخب المصالح نفسها أو الانتماءات المشتركة. هذه التحالفات غالباً ما تؤثر على توزيع الموارد، ترقيات الموظفين، وتحديد السياسات التشغيلية. بذلك يوضح تحليل باريتو أن هذه **التحالفات لا تمثل فقط مصلحة فردية، بل هي أداة للبقاء والحفاظ على الهيمنة ضمن المؤسسة**. بالتالي، فهم طبيعة هذه التحالفات يتيح تفسير أسباب الصراعات الإدارية، الجمود البيروقراطي، أو حتى ضعف الأداء المؤسسي.

إن الجانب الأهم من **التحليل السوسيولوجي** يكشف لنا بأن **التحالفات ليست ثابتة، بل ديناميكية وتتأثر بالتغيرات في القوى الداخلية والخارجية للمؤسسة. على سبيل المثال، التغييرات السياسية أو التعيينات الإدارية الجديدة قد تعيد تشكيل التحالفات القديمة، كما أن التحالفات قد تتحول إلى نزاعات إذا شعرت مجموعة من النخب بأنها مستبعدة أو تهدد مصالحها**. وهنا يظهر باريتو مرة أخرى من خلال فكرة التداول المستمر للنخب، أي أن أي هيمنة نخبوية داخل المؤسسة معرضة دوماً للتآكل والتجدد.

ويمكن أيضاً تفسير تحالفات المؤسسات الحكومية من خلال منظور **الشرعية والمعتقدات**. فالنخب التي تحافظ على توازن بين الصلابة والمرونة تتمكن من تقديم سياساتها كمبادرات عقلانية ومنطقية، حتى لو كانت في جوهرها تهدف إلى حماية مصالحها. أما النخب التي تركز على الصلابة المفرطة دون مرونة، فهي غالبًا ما تواجه مقاومة من النخب الثانوية أو الموظفين، مما يؤدي إلى ضعف تنفيذ السياسات وتراجع الفاعلية المؤسسية .

باختصار شديد، إن تطبيق مقولات باريتو على التحالفات داخل المؤسسات الحكومية يتيح لنا فهم العلاقة بين القوة، المصالح، والمعتقدات، ويوضح كيف يمكن للنخب أن تحافظ على السيطرة، وكيف أن الديناميات الداخلية للمنظمة تفرض قيوداً على الأداء

والفعالية. كما يبرز أهمية التوازن بين النزعة المرنة والنزعة الصلبة داخل النخبة لضمان استقرار المؤسسة واستمرارية القرارات.

وفيما يتعلق **بالعلاقات داخل المؤســـســـات التعليمية في المجتمعات العربية** نجد أنها تتكون من **فضـــاء مركب يلتقي فيه عدد من القوى الاجتماعية والســياســية والثقافية**، وهو ما يجعلها نموذجاً عملياً لفهم ديناميات النخب والتحالفات الداخلية وفق نظرية باريتو.

ويرى باريتو أن أي مجتمع أو مؤســـســة ينقســم فعلياً إلى **نخبة حاكمة وأغلبية تابعة**، حيث تُستخدم قوة النخبة لتوجيه القرارات والسياسات، بينما تطبق الأغلبية القواعد والمعايير المفروضة.

يظهر هذا الانقسام **داخل المؤسسات التعليمية من خلال العلاقات بين الإدارة العليا، أعضاء هيئة التدريس، والكوادر الإدارية**، إضافة إلى الطلاب.

تتمحور طبيعة هذه العلاقات حول توازن القوى والمصـــالح المشـــتركة. النخب الأكاديمية والإدارية غالباً ما تتشكل تحالفاتها على أساس الخبرة، المكانة العلمية، والانتماءات المهنية، بينما تســـتفيد هذه التحالفات من دعم الهيكل المؤســـسي نفسـه لضـمان اسـتمرار السـيطرة على القرارات الجوهرية، بما في ذلك التوظيف والترقيات وتوزيع الموارد. بذلك يمكننا رصـــد مقولة باريتو حول **نزعة الثعالب ونزعة الأســـود**، حيث تعتمد

النخب في بعض المؤسسات التعليمية على المرونة في بناء الشبكات الأكاديمية والتفاوض مع الزملاء، وفي الوقت نفسه على الصلابة لفرض النظام الأكاديمي والانضباط المؤسسي .

ومن **المنظور السوسيولوجي**، يمكن لنا **تفسير التحالفات داخل المؤسسات التعليمية على أنها آلية للحفاظ على الهيمنة والشرعية الأكاديمية**. على سبيل المثال، **النخب الإدارية غالباً ما تتعاون مع بعض أعضاء هيئة التدريس لإنشاء برامج أو مشاريع استراتيجية تحقق أهدافهم المشتركة، بينما قد تهمش مجموعات أخرى داخل المؤسسة بسبب ضعف الانتماء أو قلة النفوذ**. هذه التحالفات تحدد بشكل غير مباشر توزيع الفرص التعليمية والبحثية، كما تؤثر على مسار القرارات الأكاديمية وصياغة السياسات الداخلية.

إن تحليل باريتو يوضح أن هذه التحالفات ليست ثابتة، بل تتغير بتغير القوى الداخلية والخارجية. على سبيل المثال، **ظهور إدارة جديدة أو تغييرات في السياسات التعليمية الحكومية** قد يؤدي إلى إعادة تشكيل العلاقات والنفوذ داخل المؤسسة. النخب القديمة قد تضطر إلى تبني استراتيجيات جديدة للحفاظ على مكانتها، بينما تظهر نخب صاعدة تسعى إلى إثبات نفسها والمطالبة بتغيير قواعد اللعبة.

بالإضافة إلى ذلك، تؤثر **المعتقدات والثقافة المؤسسية على شكل العلاقات**. فالمؤسسات التي **تتمتع ببيئة مفتوحة** تشجع على التعاون والمشاركة تكون أكثر قدرة على دمج النخب الجديدة، **بينما المؤسسات الصارمة أو المغلقة تولد مقاومة أو صراعات داخلية**، مما ينعكس على الأداء التعليمي وجودة القرارات الأكاديمية. هذه الديناميات تبرز أهمية التوازن بين النزعة المرنة والنزعة الصلبة للنخبة داخل المؤسسات التعليمية، وهو ما يضمن استقرار العلاقات واستمرار الشرعية المؤسسية.

باختصار شديد، إن تطبيق مقولات باريتو على شكل العلاقات داخل المؤسسات التعليمية في المجتمعات العربية **يكشف أن النفوذ والتحالفات الداخلية، مزيج من المصالح والمعتقدات، هما العاملان الأساسيان في صياغة القرارات والسياسات الأكاديمية**. وفهمنا لهذه العلاقات **يمكن أن يساعد على تفسير الصراعات الداخلية، الجمود الإداري، وأحياناً ضعف الأداء المؤسسي، كما يبرز أهمية التوازن بين المرونة والصلابة لضمان استقرار المؤسسات واستمرارية الشرعية الأكاديمية.**

وفي مجال **العلاقات الاجتماعية والرعاية بين جماعات الرفاق والأصدقاء** في المجتمعات العربية نجد أن تطبيق المقولات النظرية لباريتو تعتبر منطلقاً بالغ الأهمية لدراسة الديناميات الاجتماعية الدقيقة بين

الأفراد والنخب الصغيرة داخل المجتمعات. ووفقاً لهذه النظرية تنقسم كل مجموعة اجتماعية صغيرة بشكل غير رسمي إلى نخبة صاعدة وأغلبية تابعة، حتى داخل العلاقات الودية، حيث تُمارس القوة بشكل غير مباشر من خلال النفوذ الاجتماعي والرعاية المتبادلة. وداخل جماعات الأصدقاء تظهر هذه الديناميات في كيفية توزيع المسؤوليات الاجتماعية، اتخاذ القرارات، وتبادل المصالح الرمزية بين الأفراد.

تتسم العلاقات في هذه الجماعات بالمرونة والصلابة في الوقت نفسه. فالنخب الصغيرة داخل المجموعة غالباً ما تلجأ إلى ما أسماه باريتو نزعة الثعالب، أي القدرة على المناورة، المساومة، وبناء شبكة من النفوذ داخل المجموعة، بينما تعتمد في نفس الوقت على نزعة الأسود للحفاظ على سلطتها الرمزية داخل الجماعة وفرض قواعد السلوك المقبول على سبيل المثال، في **تحديد النشاط الجماعي أو اتخاذ القرارات المصيرية**، يظهر أن بعض الأفراد يحظون بنفوذ أكبر نتيجة لعلاقاتهم السابقة أو خبراتهم الخاصة، بينما يلعب باقي الأفراد دور التابعين، مع الالتزام غير الرسمي بالقواعد المفروضة من النخبة.

من المنظور السوسيولوجي، يمكن تفسير **الرعاية الاجتماعية والرمزية بأنها أدوات للحفاظ على التماسك الداخلي والشرعية الرمزية للنخبة**. النخب الصغيرة تستخدم هذا النوع من الرعاية لتوزيع الامتيازات الرمزية، مثل الدعوات للأنشطة الاجتماعية، المشاركة في

الخطط المشتركة، أو الحصول على الدعم الاجتماعي والنفسي، وهو ما يعكس استخدام القوة بطريقة غير مباشرة لضمان استمرارية النفوذ وعليه، فإن أي محاولة لكسر هذا التوازن أو تحدي النفوذ القائم غالباً ما تواجه مقاومة، أو يؤدي إلى إعادة توزيع غير رسمي للسلطة داخل الجماعة.

كما يوضح تحليل باريتو أيضاً أن هذه **التحالفات والعلاقات ليست ثابتة، بل ديناميكية وتتغير مع مرور الزمن وتغير الظروف**. على سبيل المثال، **ظهور أفراد جدد في المجموعة أو تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية قد يعيد تشكيل توازن النفوذ بين الأعضاء**، حيث يسعى **الأفراد الجدد** إلى كسب دعم النخب القائمة أو تشكيل تحالفات موازية **هذا يعكس مفهوم التداول المستمر للنخب، حتى في سياقات صغيرة وشبه ودية مثل جماعات الأصدقاء.**

من منظور أوسع، **تؤثر المعتقدات المشتركة والثقافة الرمزية للجماعة على شكل العلاقات والرهانات**. الجماعات التي تبني ثقافة احترام متبادل ومشاركة مفتوحة تستطيع دمج جميع الأعضاء تقريباً في النشاطات واتخاذ القرارات، بينما الجماعات التي تركز على سلطة نخبوية صلبة تواجه عادة صراعات داخلية، مما يضعف التماسك الاجتماعي ويحد من قدرة الجماعة على الاستمرارية. بالتالي، يظهر أن

التوازن بين المرونة والصلابة ضروري للحفاظ على استقرار العلاقات والرعاية داخل جماعات الرفاق.

باختصار شديد، يمكن القول إن **تطبيق مقولات باريتو على علاقات الرعاية داخل جماعات الأصدقاء في المجتمعات العربية يكشف أن النفوذ الاجتماعي، التحالفات، والمعتقدات الرمزية هي عناصر حاسمة لفهم كيفية توزيع السلطة ضمن هذه الجماعات، وكيف يمكن للتفاعلات اليومية أن تولد صراعات أو تماسكاً، وبالتالي تفسير طبيعة العلاقات الاجتماعية على مستوى صغير يمكن أن يعكس أنماطاً مشابهة على مستوى المجتمع الأكبر.**

وفي النهاية سنقوم بتحليل **مشكلة الطلاق في المجتمعات العربية** بالاعتماد على نظرية باريتو. تعتبر **ظاهرة الطلاق في المجتمعات العربية قضية اجتماعية معقدة**، تعكس تداخل **العوامل الثقافية، الاقتصادية، النفسية، والسياسية**. ومن منظور باريتو، يمكن تفسير انتشار هذه الظاهرة من خلال تحليل **النخب والمعتقدات الاجتماعية**، حيث يرى باريتو أن أي مجتمع يحكمه نخبة تمتلك القدرة على تشكيل وتوجيه القيم والمعايير السائدة، فيما تلتزم الأغلبية بالقواعد والممارسات التي تفرضها هذه النخبة. في السياق العربي، يمكن القول إن التحولات الاجتماعية الحديثة، بما في ذلك **التعليم، الهجرة**، والاعتماد المتزايد على

الاقتصاد النقدي، أثرت على **البنى التقليدية للأسرة**، ما خلق ضغطاً على القيم والمعايير التي تتحكم في استمرار الزواج.

بذلك، تلعب **الرواسب الثقافية والاجتماعية دوراً كبيراً في تفسير الطلاق**، إذ تستمر مجموعة من الأنماط السلوكية التقليدية، مثل **التحكم الأبوي، توقعات الأدوار الجندرية الصارمة، والتشبث بالعادات والتقاليد**، في التأثير على العلاقات الزوجية. ويشير باريتو إلى أن هذه الرواسب **تمثل أرضية ثابتة، لكنها قد تتعرض للتوتر عندما تتغير الظروف الاقتصادية أو الاجتماعية**، مما يؤدي إلى تصادم بين توقعات الزوجين، وزيادة احتمالات الانفصال.

كما تلعب **المعتقدات الاجتماعية والدينية** دوراً في إعطاء الشرعية للعلاقات الزوجية، لكنها في الوقت نفسه قد تساهم في تكريس الصراعات الداخلية. على سبيل المثال، **يمكن للمعتقدات المرتبطة بالولاء الأسري أو القبلي أن تزيد من الضغوط على الأفراد لإبقاء الزواج قائماً، حتى عندما تفشل العلاقة، ما يخلق نوعاً من التوتر المزدوج بين الواقع والمطالبات القيمية**. هذه الديناميات تجعل بعض الأزواج يختارون الطلاق كحل أخير للتخلص من الصراع الداخلي، **خصوصاً إذا شعروا بعدم توافق القيم أو الفشل في تحقيق مصالحهم الشخصية.**

ومن خلال نظرية باريتو حول **نزعة الثعالب ونزعة الأسود**، يمكن تفسير **كيفية إدارة الأزواج للصراعات الزوجية. فالأزواج الذين يظهرون قدرة على المراوغة والتكيف (نزعة الثعالب) يستطيعون تجاوز التحديات اليومية وبناء تفاهمات مشتركة، بينما الأزواج الذين يعتمدون على الصلابة والسيطرة (نزعة الأسود) غالباً ما يزيدون من حدة الصراع، مما يؤدي إلى احتمالات أكبر للانفصال. وبذلك، يبرز أن التوازن بين المرونة والصلابة داخل العلاقة الزوجية يؤثر بشكل مباشر على استقرار الزواج.**

كما تلعب **عوامل أخرى** تتعلق بالضغوط **الاقتصادية والاجتماعية** دوراً حاسماً في هذا السياق تتمثل في **ضعف الدخل المادي، البطالة، وتغير أنماط الحياة الحديثة** يمكن أن تزيد من التوتر الزوجي، وتفتح المجال لصراعات حول **القرارات المالية والإدارية**.

هنا تتجلى نظرية باريتو في كيفية توزيع النفوذ داخل الأسرة، حيث يسعى كل طرف للحفاظ على مصالحه واستراتيجيته الخاصة، ما يؤدي في بعض الحالات إلى الطلاق.

ومن **المنظور السوسيولوجي** الأوسع، يمكن القول إن الطلاق ليس مجرد فشل فردي في العلاقة الزوجية، بل مؤشر على ديناميات أكبر في المجتمع، تشمل تغير القيم، التحولات الاقتصادية، والتوتر بين التقليد

والحداثة. إن تطبيق مقولات باريتو على هذه الظاهرة يتيح لنا فهم كيف تؤثر النخب الاجتماعية والمعتقدات القيمية على سـلوك الأزواج، وكيف يمكن أن يساهم عدم التوازن بين المرونة والصلابة في العلاقة الزوجية في زيادة معدل الطلاق.

المبحث الرابع

نظرية باريتو رؤية نقدية

رغم **الانجاز النظري الكبير الذي قدمه باريتو**، فإن المرحلة التاريخية السابقة للتنظير الاجتماعي قد شهدت تجاهلاً واضحاً لأفكاره وكان المنظرين في علم الاجتماع يردون له الصاع صاعين. فمثلما تجاهل باريتو فكر معاصريه تجاهله أحفادهم من ورثة التنظير الاجتماعي. لذلك لم تنتشر أفكار باريتو بدرجة كافية حتى تشكل أحد قنوات التطور والتراكم في تنظير علم الاجتماع، فلم يحدث تطوير المقولات باريتو بخاصة أنها شكلت طبيعة مختلفة عن طبيعة التنظير الكلاسيكي لعصر التنوير. وبرغم ذلك فإننا نجد أن باريتو قدم أفكار وتنظيراً ما زالت له وجاهته في إطار النظرية الاجتماعية المعاصرة. هذا إلى جانب أن كثيراً من أفكاره وقضاياه شكلت أساساً لنظريات اجتماعية عديدة كانت عبارة عن إنجازات عظيمة حققها التنظير الاجتماعي[1].

ويتجلى عمق وشموخ أفكاره من خلال تحليل السلوك الإنساني، ودور الرواسب والمشتقات في علاقتها بهذا السلوك، إضافة إلى تمييز بين الأفعال المنطقية وغير المنطقية، وعلاقة كل ذلك بفئات الرواسب الدافعة للسلوك الإنساني. بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد أن نقده الحاد

---

[1] انظر علي ليلة: **النظرية الاجتماعية الحديثة (الأنساق الكلاسيكية)**، مرجع سبق ذكره، ص(350).

والصـــارم للطبيعـة غير العلميـة ككثير من النظريـات الاجتمـاعيـة التي انتشـــرت في عصـــره، والتي مازالت لها وجاهتها حتى الآن، حيث نجده قد أكد أن هذه النظريات أســـســـت برهنتها لفهم الواقع الاجتماعي تدخل في باب المشـتقات، أي نمط من المتغيرات الوسـيطة، التي برزت مسـتندة إلى الرواسـب باعتبارها المتغيرات المسـتقلة المؤسـسـة للوجود الاجتماعي. وهو مـا يعني أن بـاريتو قـد وجـه نظرنـا - نحن البـاحثين في علم الاجتمـاع - إلى العناصـــر أو المتغيرات ذات الدوام النســـبي في بناء شـــخصـــيات البشـــر الأفراد، وهي المســـؤولة في ذات الوقت عن تطوير بناء المجتمع، وهي ذات المتغيرات التي تشـكل أسـاسـاً لتباين البشـر، وتباين النخب، كما هي التي تسـاعدنا على فهم التدرج الاجتماعي ودورة النخب المسيطرة على السـلطة والتي تتولى حكم وإدارة المجتمع، إضـــافة إلى نقده لإيديولوجيات التقدم ومفاهيم الديموقراطية والتضـامن، بحيث شـكلت أفكاره على كافة هذه السـاحات أسـاسـاً لكثير من الأبنية النظرية التي طورها منظرون تحت تأثير أفكاره.

إلى جانب ذلك فقد قدم باريتو تصوراً للمجتمع باعتباره نسق اجتماعي يحقق بصـورة دائمة توازناً ديناميا، أي متحركاً، وفي هذا السـياق نجد أن باريتو يطور تصورا تميل فيه المجتمعات أو الأنساق الاجتماعية إلى اهتزاز توازن بسبب متغيرات طارئة عليها، ثم سعيها لاستعادة توازنها إذا طرأ على المجتمع أي اختلال لتوازنه، وهو هنا يقدم تصـــورا للتغير الدوري مرتبطاً

بنمط التوازن الدوري، فتارة يستعيد المجتمع توازنه بعد تغيره استناداً إلى فاعلية رواسب تأسيس الارتباطات، فهي رواسب نخبة " **الثعالب** "، وفي تارة أخرى يحقق التغير واستعادة التوازن على أساس فئة رواسب استمرار التجمع والحفاظ عليه، وهي رواسب " **الأسود** " وفي نطاق **فهمه للتغير الاجتماعي نجد أنه لم يدركه بصيغة واحده أو على وتيرة واحدة، ولكنه ميز بين فترات يكون التغير فيها بطيئا، تتبعها فترات قد تشهد تغيرات سريعة وراديكالية، وجميعها صياغات نظرية تتفق إلى حد كبير مع الظروف والتفاعلات الو اقعية.**

وبرغم ذلك فإننا نجد أن باريتو قد وقع في مجموعة من المسائل التي تحتاج إلى توضيح كمفهومه عن الرواسب لم يكن محدداً بصورة واضحة، إلى جانب أن تحديد الرواسب تحديداً ذاتياً في جوهره بالإضافة إلى أن تحديد باريتو لها كان متأرجحاً، فتارة نجده يربط الرواسب بالتكوينات البيولوجية داخل الإنسان، وتارة أخرى يربطها بالدوافع، وتارة ثالثة يربطها بالعواطف، وتارة رابعة يؤكد أن الرواسب تشير إلى كل هذه العناصر، وهو الأمر الذي يجعل من الصعب تحديدها بدقة، خاصة وأن باريتو **اسند إليها مهمة خطيرة، وهي تأسيس الوجود الاجتماعي من داخل الفرد**، بل إننا نجده قد استنبط فيها بنية نظرية عن النخبة بكاملها، وإلى جانب عدم التحديد الدقيق لهذه الرواسب، وبرغم توضيحه لفئاتها، فإننا نجد أن الذات السوسيولوجية لم يهتم

بتطويرها، وظلت الرواسب كما هي وكما طرحها باريتو، دون أن تلعب دوراً في تطوير تنظير سوسيولوجي أكثر دقة يتعلق بها.

فمن الطبيعي أن **تثير نظرية باريتو موجة كبيرة من النقد** لأنه لا يمكن اليوم تجاهل **العوامل التاريخية والاجتماعية** في تشكيل النخب وفي دورة بناء السلطة. فلا يستطيع أحد أن ينكر اليوم بأن **القوى الاقتصادية** تلعب دوراً تاريخياً في توجيه الحياة الاجتماعية. وعلى الرغم من أهمية نظرية باريتو ولكن لا يمكن الوثوق اليوم **بقدرة السيكولوجيا وحدها على تفسير التاريخ والأحداث التاريخية. فالسيكولوجيا في النهاية نتاج لسلسلة من الفعاليات التاريخية (وسط اجتماعي)**. إذ كيف نستطيع اليوم أن نفسر وجود هذه النخب التي تقوم على معطيات الولاء للعائلة، والحاكم العسكري، والعرق والمحاصصة. وكيف نفسر وصول بعض الأفراد إلى الحكم وهم لا يملكون أي خبرة سياسية أو فكرية ولكن الظروف الاجتماعية والتكوينات التقليدية للمجتمع هي التي قادتهم إلى هذه المراكز العليا في الدولة والمجتمع. وهنا علينا أن نأخذ برأي **عبد الرحمن الكواكبي** الذي يصف هذه النخب في المجتمعات الاستبدادية حيث يقول: " **يكون أسفلهم طباعاً أعلاهم وظيفة وقرباً** ". فالنخب في البلدان العربية التقليدية لا يمكن أن تعتمد على سماتها السيكولوجية، بل على معايير القرب من الحاكم، وعلى نسق علاقات الدم والقبيلة والطائفة، وعلى قيم الانتهازية والوصولية. أما الأذكياء والقادة الحقيقيين

فهم في غمرة من التلاشـــي والعـدمية في هـذه المجتمعـات حيـث لا تنفع مواهبهم ولا قـدراتهم الســـيكولوجية في الـوصـــول إلى أي نقطة من نقـاط التمركز النخبوي في المجتمع.

قائمة المراجع

1. إبراهيم عيسى عثمان: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008.
2. توم بوتومور: **الصفوة والمجتمع (دراسة في علم الاجتماع السياسي)**، ترجمة وتقديم: محمد الجوهري وآخرون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1988.
3. إحسان محمد الحسن: **النظريات الاجتماعية المتقدمة – دراسة تحليلية في النظرية الاجتماعية المعاصرة**، دار وائل للنشر، عمان، ط3، 2015.
4. إرفنج زايتلن: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع**، ترجمة: محمود عودة وإبراهيم عثمان، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط1، 1989.
5. جورج ريتزر، جيفري ستيبنسكي: **النظريات الحديثة في علم الاجتماع**، دققه وراجعه علمياً: ذيب محمد الدوسري وآخرون، مكتبة جرير والجمعية السعودية للدراسات الاجتماعية، الرياض، ط1، 2021.
6. جوناثان هـ. تيرنر: **علم الاجتماع النظري – مقدمة موجزة لاثنتي عشرة نظرية اجتماعية**، ترجمة: موضي مطني الشمري، دار جامعة الملك سعود، ط1، 2019.
7. حسام الدين فياض: **المدخل إلى علم الاجتماع (من مرحلة التأصيل إلى مرحلة التأسيس)**، مكتبة الأسرة العربية، إسطنبول، ط1، 2021.
8. سمير نعيم: **النظرية في علم الاجتماع (دراسة نقدية)**، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1985.
9. رث والاس، ألسون وولف: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع – تمدد آفاق النظرية الكلاسيكية**، ترجمة: محمد عبد الكريم الحوراني، دار مجدلاوي، عمان، ط1 (العربية)، 2011-2012.

10. طلعت إبراهيم لطفي، وكمال عبد الحميد الزيات: **النظرية المعاصـرة في علم الاجتماع**، دار غريب، القاهرة، ط1، 1999.
11. عبد العزيز الغريب: **نظريات علم الاجتماع – تصـنيفاتها، اتجاهاتها، وبعض نماذجها التطبيقية من النظرية الوضـعية إلى ما بعد الحداثة**، دار الزهراء، الرياض، ط1، 2012.
12. عبـد الله محمـد عبـد الرحمن: **النـظريـة في علـم الاجـتمـاع (النـظريـة الكلاسيكية)**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2006.
13. عباس محمود العقاد: **فلاسفة الحكم في العصر الحديث**، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط2، 2014
14. علي بن محمد الكاشـف: **النظريات الاجتماعية – الاتجاهات والمذاهب الكلاسيكية**، بدون دار نشر، ب. ت.
15. علي ليلة: **النظرية الاجتماعية الحديثة (الأنسـاق الكلاسـيكية)**، الكتاب: الثالث، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 2014.
16. محمد عـاطف غيث: **دراسـات في تاريخ التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع**، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1975.
17. محمد عبد السـميع عثمان: **أسـس علم الاجتماع – المفاهيم والقضـايا**، كلية التربية، جامعة الأزهر، القاهرة، ط1، ب.ت.
18. نيقولا تيماشـيف: **نظرية علم الاجتماع (طبيعتها وتطورها)**، ترجمة: محمود عودة وآخرون، مراجعة: محمد عـاطف غيث، دار المعـارف، القـاهرة، ط5، 1978.
19. Vilfredo Pareto: **The Mind and Society**, Translated by: Andrew Bongiorno and Arthur Livingston, New York: Harcourt, Brace, 1935.

20. Vilfredo Pareto: **The Rise and Fall of Elites: Application of Theoretical Sociology**, Translated by: Hans L. Zetterberg. Totowa, NJ: Bedminster Press, 1968.
21. Gaetano Mosca: **The Ruling Class**, Translated by: Hannah D. Kahn, New York: McGraw-Hill Book Co., 1939.
22. Robert Michels: **Political Parties: A Sociological Study of the Oligarchical Tendencies of Modern Democracy**, Translated by: Eden and Cedar Paul, New York: Hearst's International Library Co., 1915.

الدكتور حسام الدين فياض الأستاذ المساعد في النظرية السوسيولوجية المعاصرة (دكتوراه دولة) باحث وأكاديمي في العلوم الثقافية واللغويات واللسانيات الاجتماعية. له العديد من الأبحاث العلمية والمقالات الفكرية التي تجمع بين النظرية السوسيولوجية النقدية، والفكر الاجتماعي، والثقافي المعاصر.

ولد في **مدينة حلب** عام 1980. درس الليسانس في جامعة حلب كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم علم الاجتماع وتخرج منها عام 2004، حصل على دبلوم الدراسات العليا السكانية عام 2005 في كلية الاقتصاد جامعة حلب، ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا علم الاجتماع العام عام 2006 في كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة دمشق. وفي عام 2006 عُيِنَ معيداً في قسم علم الاجتماع كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة حلب باختصاص (النظريات السوسيولوجية المعاصرة). حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة عين شمس في جمهورية مصر العربية. ويعمل حالياً في قسم علم الاجتماع - كلية الآداب - **جامعة ماردين ارتوقلو (تركيا)**.

" السلطة تبقى في يد النخبة ما دامت قادرة على موازنة النزعات الغريزية والمعتقدات التي تمنح أفعالها الشرعية الاجتماعية " (الكاتب).

نحو علم اجتماع تنويري للدراسات والأبحاث الإنسانية والسوسيولوجية

@ enlightenment980@gmail.com